

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

التركيبة الاجتماعية المليانية وإسهاماتها في الحياة الاقتصادية خلال العصر الوسيط

**The Millenian social structure and its contributions
to economic life during the medieval period**

د. قاضي فتيحة Dr. Kadi Fatiha

أستاذة محاضرة -ب-، جامعة البليدة -2- لونيسى علي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،

قسم التاريخ وعلم المكتبات

Lecturer (Grade B), University of Blida-2- Lounici Ali, Faculty of Humanities and Social
Sciences, Department of History and Library Science

f.kadi@univ-blida2.dz

تاريخ النشر: 2026/07/15

تاريخ القبول: 2025/12/30

تاريخ الاستلام: 2025/09/23

المخلص:

تسلط الدراسة الضوء على تاريخ مدينة مليانة الوسيطة، وتركز الحديث أكثر على تركيبها الاجتماعية وفعاليتها في الحياة الاقتصادية، وبشهادة النصوص التاريخية المقدمة حولها فهي ذات خصوصية طبيعية مميزة أهلها لأن ترتقي إلى مصاف المدن الحضارية وفق الشروط الخلدونية، فضلاً عما ورد في محاسنها حول استراتيجيتها الجغرافية وهيكلتها التضاريسية التي سرقت اهتمام الحكام وسجلوا إعجابهم بها، هذا؛ واحتضنت المدينة أدوار بطولية وشكّلت الملاذ الآمن للثوار، كما شكّلت مركزاً للتحركات السياسية والعسكرية. لكن وبالرغم من الأدوار التي احتضنتها المدينة إلا أنّ الكتابات لم تُعْطِها حقها من التوثيق والتحليل؛ لا سيما المؤلفات الجغرافية التي تُعدّ من المصادر الأساسية في التأريخ للمدن خلال العصر الوسيط، خاصة فيما يتعلّق ببنيتها الاجتماعية ودورها الاقتصادي واللذان يُعدان عاملان متلازمان للنهوض بصرح أي مدينة أو حاضرة خلال العصر الوسيط، وانطلاقاً من هذه الثغرة العلمية بنينا دراستنا التي تسعى الكشف عن تاريخها الحضاري الذي يدخل ضمن التعريف بتاريخ مدن المغرب الأوسط من خلال تقديم قراءة تحليلية معمّقة للمعطيات المقدّمة.

الكلمات المفتاحية: مليانة؛ التركيبة الاجتماعية؛ الحياة الاقتصادية؛ المغرب الأوسط؛ العصر الوسيط.

Abstract:

The study sheds light on the medieval history of the city of Miliana, with a particular focus on its social structure and its role in economic life. Based on historical texts that reference the city, Miliana possessed unique natural features that enabled it to rise to the status of a civilized urban center, in accordance with Ibn Khaldun's criteria. Furthermore, its praised geographic strategy and distinctive topography drew the admiration of rulers and captured their attention. The city also played a heroic role, serving as a safe haven for rebels and as a hub for political and military movements.

Despite these significant roles, scholarly writings have not given Miliana the attention it deserves in terms of documentation and analysis—especially in geographical literature, which constitutes a fundamental source for studying medieval cities, particularly regarding their social structure and economic function. These two elements are essential and interconnected in the rise of any urban center during the medieval period. It is from this academic gap that our study emerges, aiming to uncover the city's cultural history as part of the broader narrative of medieval urban development in the Central Maghreb, through a detailed analytical reading of the available data.

Keywords: Miliana; social structure; economic life; Central Maghreb; medieval period

مقدمة:

إذ تعتبر مليانة من بين أهم المعالم الحضارية التي

ساهمت بطريقة أو بأخرى في الحفاظ على هوية المنطقة إلى يوم الناس هذا، ويعود الفضل في ذلك إلى التنوع الذي زخرت به تركيبها الاجتماعية والذي أدى إلى وفرة اليد العاملة التي ظلت عنصراً فاعلاً ومنتجاً فيها، وأمام تنامي خيراتهم الفلاحية والصناعية

خاصة بعد انضمام العنصر الأندلسي والموريسكي لها فیم بعد (مع نهاية العصر الوسيط) والذي لا يزال صدهم ضارباً إلى يومنا، وكل ذلك أدرك بالخبر في دفع عجلة التقدم الاقتصادي، هذا؛ وقد حققت مكسباً تجارياً لا بأس به بحركة

إنّ البحوث الحديثة أولت اهتماماً بالغاً بدراسة التاريخ الحضاري لمدن المغرب الأوسط باعتباره حيزاً جغرافياً واسعاً؛ على غرار الدراسات السابقة المتعلقة بتاريخ الحواضر الكبرى كتميرت وتلمسان وبجاية باعتبارهم مراكزها وعواصمها الحضارية طيلة العصر الوسيط، مما ساعد على بعث حركة النشاط والتأليف من جديد، وحقيقة لعبت هذه المدن دوراً ريادياً على مستوى الأحداث التاريخية والحضارية للمنطقة خصوصاً والغرب الإسلامي عموماً، وعلى رأسها مدينة "مليانة".

الأندلسي، أما بالنسبة للعنصر الرابع والأخير فتطرق إلى مختلف الجنسيات الأخرى.

المحور الثالث فقد جاء بعنوان: "الحياة الاقتصادية وإسهام التركيبة الاجتماعية فيها"، وقسم إلى ثلاث فروع تناول كل فرع منها قطاع من القطاعات الاقتصادية الثلاث (الزراعة، الحرف والصناعات، التجارة).

المحور الأول: أصل تسمية مليانة ولمحة موجزة عن تاريخها يهدف هذا المحور إلى تتبع الجذور اللغوية والتاريخية لتسمية مدينة مليانة إحدى الحواضر التاريخية البارزة في المغرب الأوسط، مع تقديم لمحة موجزة عن أبرز المحطات التي طبعت مسارها التاريخي.

أولاً- أصل التسمية.

تنوعت مادتها العلمية بين الكتابات الغربية والعربية واختلفت تسميتها بين هذين المصدرين، فقد جاءت في الكتب اللاتينية باسم "منليانة manliana"، كما شاعت عند البعض باسم "زوقبار zucchar"؛ غير أن هذه الأخيرة هي اسم لضبعة استبيحت في القرن السادس ميلادي ولم يعد لها ذكر أصلاً، أما في الكتابات الإسلامية الجغرافية فقد ذكرت لأول مرة مع منتصف القرن 4هـ/10م، ولم يُجد لها ذكر قبل هذه الفترة فلا يعقوبي ولا بن خرداذبة ولا بن الفقيه ذكروا شيئاً، ولم تظهر إلا عند بن حوقل (ت367هـ/977م) وأوردها باسم "مليانة"² دون ضبط حركة حروفها، ليتّم ضبطها في المعجم الجغرافي البلدان بكسر الميم وسكون اللام، وقال هي آخر مدينة في إفريقية³، غير أن أصل الكلمة في لسان العرب من مصطلح "ماكنانة"⁴ وأصبح يقال لها مليانة.

ومليانة هذه مدينة كبيرة وجميلة جدا ذات موقع استراتيجي على سفح جبل زكار وتُشرف على سهول شلف، وهي ترتفع على سطح البحر بـ 730 متر⁵ (40 ميلاً)⁶، مما يعني أنها مدينة في غاية الحصانة حيث تحيط بها بالأسوار العالية من كل الجهات⁷، وما زادها حصانة أيضاً اتصالها بجبل الونشريس أيضاً⁸، أما حدودها ومعالمها الجغرافية حسب النصوص الجغرافية؛ فهي تتوسط مدن وحصون وحواضر هامة بين آشير وتنس والمسيلة علاوة على أنها قريبة من نهر شلف⁹.

زارها العديد من الرحالة والجغرافيين وسجلوا إعجابهم بها ومما نستشهد به هنا ما ذكره العبدري قائلاً: "البلدة الخصيبة مليانة وهي مدينة مجموعة مختصرة وليست مع ذلك عن أمهات المدن مقصرة أشرفت من كثر على وادي

القوافل التجارية الداخلة والخارجة عبر رحلي ذهاب وإياب (تصدير واستيراد).

ومما اتضح لنا أن مليانة شكلت ولا تزال تشكل حلقة بحث هامة في التاريخ الحضاري للمغرب الأوسط، فما مدلولها الاصطلاحي وإلى ما يرجع تاريخ تأسيسها وحدودها الجغرافية؟ وما هي أبرز فئاتها الاجتماعية؟ وفيما تجلت إسهاماتها في الأنشطة الفلاحية والصناعية وحتى التجارية خاصة إذا ما كنا نعلم أن الحياة الاقتصادية هي العمود الفقري لكل كيان فدائماً ما تلعب على الوتر الحساس بين خاصيتي القوة والضعف والتأسيس والسقوط؟

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على التركيبة الاجتماعية لمدينة مليانة، وإبراز أدوارها في الحياة الاقتصادية خلال العصر الوسيط، وذاك من خلال رصد ملامح البنية الاجتماعية وإبراز مساهماتها في دعم النشاط الاقتصادي بمدينة مليانة.

وفيما يخص المنهج فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي كأداة أساسية، إضافة إلى آليتي السرد والنقد، وذلك من خلال الاعتماد على بعض النصوص التاريخية المصدرة التي من شأنها إثبات أو نفي بعض الوقائع التاريخية المرتبطة بتطور التركيبة الاجتماعية لمليانة ودورها في الحياة الاقتصادية خلال العصر الوسيط.

وقد إرتأينا لتقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة محاور رئيسية، قصد الإحاطة بمختلف الجوانب المرتبطة بتاريخ مدينة مليانة وتركيبها الاجتماعية وأدوارها الاقتصادية خلال العصر الوسيط.

المحور الأول، خصص لدراسة أصل تسمية مدينة مليانة ولمحة موجزة عن تاريخها، وقد قسم بدوره إلى فرعين، الفرع الأول: خصص لدراسة الأصل اللغوي والإصطلاحي لمدينة مليانة وتتبع دلالاته عبر المصادر التاريخية والجغرافية. أما الفرع الثاني تضمن عرضاً تاريخياً موجزاً لمسار المدينة منذ نشأتها، مع التركيز على أبرز المحطات التي ميزت تطورها خلال العصر الوسيط.

المحور الثاني وسُمي بـ: "التركيبة الاجتماعية لمدينة مليانة، وقد قسم إلى أربعة فروع رئيسية، تم من خلالها تناول المكونات السكانية التي شكلت النسيج الاجتماعي للمدينة، الفرع الأول خصص لدراسة العنصر البربري، أما الفرع الثاني فتناول العنصر العربي، والعنصر الثالث فتطرق إلى العنصر

استعصى عليه أمرها مدة ثلاثة سنوات لتدين له فعليا سنة 547هـ/1152م²⁰، وبقيت في أيديهم إلى فترة متأخرة من الزمن غير أنها تأثرت بضربات بنو غانية نهاية القرن الخامس هجري وبداية القرن السادس هجري²¹.

لقد عاثت حروبهم فسادا على أرض مليانة حيث أدت إلى خراب الكثير من العمران وفساد الزروع ونهب الخيرات، وما أنهكها أيضا الحروب الزيانية الموحدية نهاية القرن السابع ولم تهدأ أوضاعها إلى غاية دخولها تحت حكم يغمراسن سنة 698هـ/1298م؛ لما نزل تلمسان وملك كل من ندرومة ومازونة ومليانة وباعه أهلها واليا عليهم²³، غير أن ذلك لم يدم مطولا فعادت مجددا واحتضنت الصراع الذي تبناه الثوار ضد السلطة في بلاد المغرب الإسلامي فضرب عليها حصار شديد ولم تنفص صعيدا إلا مع سنة 659هـ/1260م²⁴، ومن تلك الفترة غابت أخبارها جملة وتفصيلا.

المحور الثاني: التركيبة الاجتماعية للمليانية

لم تحظ مدينة مليانة باهتمامات الجغرافيين كغيرها من المدن إذ أنهم تغاضوا عن ذكر تركيبها الاجتماعية واكتفوا بعبارة "مدينة عامرة وآلة"²⁵، أما عن عناصرها فتكتف بذكر "القبائل البربرية"²⁶، ولذلك سنحاول عرض ما تحصلنا عليه من مجموع النصوص التي تحدثت عن تركيبها الاجتماعية: أولاً- البربر:

انتشرت القبائل البربرية بمليانة وضواحيها كلها، وقد توطنت جبل الونشريس بقوة كبنو مليلت وبنو وارتجان وكتامة مكناسة بنو خليل حرسون وأوربة ومطماطة وبنو خليفة يصلاصتن وزواوة ومطغرة بنو أبي بلال وغيرهم²⁷، ونسبة لتقارب المجال الجغرافي فلا بد وأن تتأثر مليانة بنفس تلك التركيبة، وهو ما أدلى به صاحب الاستبصار قائلا: "وحولها قبائل كثيرة من البربر"²⁸، وذلك كله مدعاة للقول أن معظم سكانها من أهل البداوة باعتبار المنطقة منطقة هضاب وجبال. إلى جانب القبائل الصنهاجية باعتبار قبيلة صنهاجة قبيلة كبرى توزعت على كافة مناطق وأقاليم المغرب الأوسط، وعلى رأسها مليانة والتي مثلت موطنها الأساس، حيث عدت من بين أهم المناطق التي احتوت القبائل الصنهاجية لدرجة أن أعدادهم لا تعد ولا تحصى بها وذلك لعدة أدلة ومؤشرات، فتذكر الروايات أن موسى بن النصير لما فتحها سبي من الصنهاجيين خلق كثير²⁹، وباعتبار أن بلقين صنهاجي الأصل أيضا وهو أول من اختطها في العهد الإسلامي، فطبيعي أن

شلف، واستشرفت نسيم طرفها من شرف في روضة جمة الأزهار والطرف فرعت في سفح جبل حى حماها أن يرام وشرعت في أصل نهر يشفي الهيم من الهيام، شاق منظرا وراق مخبرا، وشفى الظماء موردا ومصدرا يشتهي الناظر إليه وهو ريان الشروع... والماء من رفته دموع"¹⁰، وفيما يبدو أن مليانة حافظت على مكانتها وجمالها إلى فترة متأخرة من العصر الوسيط فيذكر أنها جاءت على لسان الشاعر أبو بكر بن الصابوني الأندلسي¹¹ لما دخلها القرن السابع هجري وأنشد سلطانها قائلا:

الله جارك في حل ومُرتحل يا مُعليا ملّة الإسلام في الملل
فسرت والسعد يدعوني إن السعادة في مليانة فمن يُنشدني²²

ثانيا- لمحة تاريخية عن مدينة مليانة:

أجمعت المصادر الجغرافية أن تاريخ تأسيسها يرجع إلى العهد الروماني¹²، مع اختلاف طفيف فيمن ينسب بناءها وعمارتها للفينيقيين¹³، وإن أول من فتحها هو موسى بن النصير وسبى منها خلقا كثيرا¹⁴، مما يعني أنها كانت أهلة بالسكان وجيوبها عامرة، وفيهم يخص صورتها بين العهدين الروماني والإسلامي فقد آلت إلى كثير من الفوضى والخراب عقب الحروب التي جمع روما وبيزنطا، ليعيد زيري بن مناد بناءها في القرن 4هـ/10م¹⁵، فنعمت بكثير من الأمن والاستقرار عهده، ثم أثن عليها بلقين بن حماد الذي أحكم قبضته على جل المناطق المجاورة لأشير¹⁶، وجدد بناءها وحصنها بسور وأحسن إلى أهلها ووزع عليهم الجرايات والمكاسب، كما اتخذها عينه الناظرة على تحركات القبائل البربرية خاصة الزناتية وخطأ دفاعيا على أشير.

غير أن النص الذي أورده الإدريسي يشير إلى العكس من ذلك ويرى بأنها بلغت أوجها خلال العهد الحمادي¹⁷، أين تقدمت في مجال العمران ومما لوحظ عنها أيضا تطور حركة نشاطها الاقتصادي وربما يرجع الفضل في استقرار أحوالها إلى موقعها الاستراتيجي الذي يتميز بالحصانة وقربها من مراكز الدفاعية وعواصم الدول السياسية في كل من أشير وبجاية¹⁸.

وبعد هذه الفترة خضعت مليانة للحكم المرابطي أيضا الذين حكموا كل البلاد الواقعة غرب المغرب الأوسط فطبيعي أن تدخل مليانة في حوزتهم، هذا وقد دخلت بعدهم تحت لواء عبد المومن بن علي قوة¹⁹ بعدما دانت له كل من قرطبة وقرمونة وجيان سنة 544هـ/1149م؛ غير أن الرواية التي أصدرها ابن أبي زرع الفاسي تشير إلى أنه لم يتمكن منها جملة واحدة فقد

يُوطن أهلُه وأبناءَ عمومته³⁰ واستقروا بها إلى أن اندثرت أخبارهم ولم يبق منهم إلا النفر القليل³¹، إلى جانب قبيلة زواوة وهم الآخرين الذين كانت مواطنهم بديارها³²، علاوة على قبائل زناتة التي كانت منتشرة بين ربوع وادي شلف إلى غاية تلمسان³³، إلى جانب قبيلة مغراوة³⁴.

ثانيا- العرب:

حقيقة إن المؤلفات وعلى اختلافها لم تذكر لنا شيئا عنها، غير أنه لا يمكن استبعاد العنصر العربي منها كونها خضعت للفتوحات الإسلامية إضافة إلى الموجهة العربية الهلالية التي اجتاحت كل أنحاء المغرب الإسلامي فلا نستبعد وجود العنصر العربي بها، وقد عثرنا على إشارة لوجود الثعلبية من بني يعقوب، وقد دخلوا المنطقة أواخر القرن السابع هجري وأدوا المغارم واستمرت رياستهم بها إلى آخر العصر الوسيط³⁵، هذا وقد نزلتها قبائل بنو هلال لما تحالفوا مع بنو غانية ضد الموحيدين سنة 580هـ/1184م³⁶، ودامت تردداتهم عليها إلى أن ملكوها.

ثالثاً- العنصر الأندلسي:

مما لا شك فيه أنَّ العلاقة بين المغرب الأوسط والأندلس كانت وثيقة إلا في بعض الفترات التي شهدت صراع الزعامات على الحكم، وفيهم عدا ذلك فقد كانت العلاقة وثيقة انقلبت على جميع الميادين الحضارية بالإيجاب؛ وبناء على ذلك لا يمكن حصر أو ربط هجرة الأندلسيين إلى المنطقة في فترة معينة بل ظلت قائمة ونشطة طيلة العصر الوسيط؛ لا وبل في فترات جد متقدمة ودليل ذلك بناءهم لمدينة وهران نهاية القرن 3هـ/9م؛ لتزايد أعدادهم بعد معركة حصن العقاب وتوالي سقوط مدنها تباعا في قبضة النصارى وكانت غرناطة آخرها. وفي هذه الفترة بالذات سجلت سواحل المغرب الإسلامي قدوم أعدادا هائلة منهم، وقد ظلت كل من وهران تنس وشرشال ودلس والجزائر البلد المستضيف بحكم قرب المسافة بين الضفتين وبحكم قرب هذه المدن من مليانة فطبيعي لجوئهم إليها، وبالتالي فمليانة تعد من المدن التي استقبلت العنصر الأندلسي وسمحت له بأن يسكن في أظهرها ضف إلى ذلك أنها عدت في ذلك العصر مركز تجاري عالمي فلا بد وأن يتردد عليه التجار الأندلسيين.

لقد ساهموا في جميع مناحي الحياة من تشييد المدن ونشاط الحركة الاقتصادية³⁷، باعتبارهم أهل حرفة وصناعة، فعلى سبيل المثال نذكر تعميرهم لمدينة تنس وتكليفهم من قبل

نزل المدينة مليانة العديد من العناصر الاجتماعية حسب كل مصر وبلد ومن الشعراء والملوك³⁹، كما ورد لفظ اليهود في المجتمع الملياني أيضا⁴⁰، ولا بد لها أنها تأثرت بالعناصر الإباضية التي حكمت المغرب الأوسط منتصف القرن الثاني هجري كونها المدينة الأقرب من عاصمة حكمهم تمهرت، إضافة إلى العناصر الشيعية التي صالت وجالت في المنطقة والتي أبدى لها بلكين مجدد مليانة بالطاعة كما تأثرت بالعناصر المرابطية التي اشتهرت بلثامها وأحكمت قبضتها على الجهة الغربية من المغرب الأوسط.

المحور الثالث: الحياة الاقتصادية واسهام التركيبة الاجتماعية فيها

إنَّ البحث في النُظم الاقتصادية لمدينة مليانة بمثابة البحث عن الكبريت الأحمر؛ فقد وردت إشارات طفيفة حولها لا تفي بالغرض المطلوب، فغريب مدينة كهذه لم تتحدث عنها المؤلفات كثيرا بالرغم من توفر جميع مؤهلاتها البشرية والطبيعية وإهمال كلي للثورة الحيوانية، وكل ما تم تداوله محصور في التسمية وبعض من جملة أخبارها التاريخية، إلى جانب ذكر مياها وخصوبة أرضها دون زيادة أو نقصان؛ وإنَّ التشابه الكبير الذي جاء في المادة العلمية لم يترك لنا مجالا للتعريف بمنتجاتها الفلاحية وما شابه ذلك من خيرات ونعم.

إنَّ من بين الإشارات التي لفتت الدراسة نوعا ما الحديث عن بعض نظم ملكية أراضيها فقد اشتملت على مختلف الملكيات كالعامية المشاعة التي غلبت على أراضيها والمنتشرة بين القبائل البربرية أين تكثر الأنشطة الفلاحية المتعلقة بالرعي وتربية الماشية⁴¹، والملكية الخاصة التي تجسدت في بعض العائلات الحاكمة، ومما أخبرنا به الونشريسي أيضا سيادة أراضي الحبس علاوة على الأراضي التي انتقلت بين الملاك عن طريق الهدية القرن 8هـ/15م⁴²، إضافة إلى أرض الشعراء.

أما في مجال انتاج الفواكه فقد كانت مليانة كثيرة الأشجار المثمرة⁵⁰، كما سجلت بها جميع أنواع الفواكه لقول صاحب الاستبصار: "ولها أنهار وبساتين فيها جميع الفواكه"⁵¹، ولعل أبرزها شجر الجوز الذي يغطي نصف مساحة جبلها لدرجة أنهم لا يقطفونه ولا يبيعونه⁵²، ولقد فسر مرامول كاربخال المسألة قائلا: "نظرا لكبر شجر الجوز لم تكن الأيدي تصل إلى قطفه فبقى على حاله"⁵³، كما احتوت على مختلف أشجار الرياحين نظرا علاوة على كثرة غطاءها النباتي⁵⁴، إلى جانب أشجار الكروم والسفرجل المعنق الفارسي الذي ترجع أصوله إلى المدينة الجارة "الخضراء"⁵⁵، والعنب والكرز⁵⁶، ومما اتضح لنا أيضا غناها بشجر الكروم في كل من منطقتي بني واريفن والخضراء⁵⁷، والذي لم تزل مشتهرة به إلى اليوم.

هذا؛ وقد صرح الباحثة كاربخال بوجود سلالة جيدة من أشجار الليمون الذي ليس بإفريقيا مثله، علاوة على شجر البرتقال الذي حملت الأطنان منه إلى المناطق المجاورة لبيعه هذا وقد استقبلت أسواق تنس أنواعا جيدة منه⁵⁸، وفيما يبدو من خلال ما نوه عليه البكري بأن الأسعار بها كانت رخيصة⁵⁹، كما انتشرت بها زراعة البصل المسقي من نهر شلف في كل من فحوص بني وازلفن⁶⁰، إلى جانب العصفور والكتان والسمسم وهو ما وضحه اليعقوبي قائلا: "وادي شلف... يفيض كما يفيض النيل وعليه يزرع عليه العصفور والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب"⁶¹.

ثانيا- الحرف والصناعات:

لم تحتفظ النصوص الجغرافية ولا التاريخية بنيد عن هذه الأخيرة في مليانة، غير ما أورده الحسن الوزان في أن جل سكانها يحترفون الصناعات: "يكاد يكون سكانها كلهم صناعا نساجين أو خراطين، ويصنع هؤلاء أواني خشبية للشراب يقبل الناس على شرائها"⁶²، فعلاوة على ذلك تفننوا في صناعة النسيج والسروج والجوخ على طريقة سكان المغرب الأقصى⁶³.

ثالثا- التجارة:

إن موقع مليانة استراتيجي هام يجمع بين مختلف الطرق، وبالتالي فإنه يتربع على سوق عالمية ومحطة لالتقاء القوافل التجارية وقبله التجار، فالسوق هو مرآة الاقتصاد العاكسة ووجه الثاني، فقد وجدت بها سوق جامعة⁶⁴، وإن مصطلح الجامعة دلالة على أنها مركز تجاري هام ودليل أيضا على تحسن أحوالها ورخاء معيشتها ورخص أسعارها، إضافة إلى سوق ماكسن⁶⁵ الذي ارتادته مختلف القبائل للتبضع والاقتناء

وفيم يخص مؤهلاتها الطبيعية فقد أشادت النصوص الجغرافية بوفرة مياهها، الطبيعية من مياه الأمطار أين سجلت بها كميات التساقط بكثرة، إلى جانب مياه الوديان التي لا ينقص منسوبها لا صيفا ولا شتاء⁴³، ولعل أشهرها وادي شلف ووادي المجمع الرابط بين كل من تلمسان ومليانة إلى أول تازا من المغرب الأقصى⁴⁴.

إضافة إلى المياه الجوفية كمياه الآبار والعيون عين خراطة التي تنبعث من أعالي جبل زكار⁴⁵، ونظرا لكثرة مياهها جعل في كل دور سقاية⁴⁶، وفيما خلت من هذه الإشارة لم نتحصل على نصوص تفيد وسائل ونظم السقي خاصة وأنه على أطرافها وجدت البساتين والمروج الخضراء، ونسبة لكثرة زروعها وحبوبها وجد في كل منطقة مطاحن وأرحية لتحويلها إلى مواد قابلة للاستهلاك لكن وللأسف لم نعثر على كيفية استخدامها، كما لا يمكن إغفال عامل الخصوبة فيها حيث قال صاحب الاستبصار أنها أخصب مناطق إفريقية كلها، كما أنها أشرفت على العديد من القرى العامرة والفحوص الواسعة كفحص شلف الذي يتفرع منه فحص بنو واريفن⁴⁷ المتميز بشساعة أراضيه.

إن ذلك التنوع والزخم لم يأتي محض الصدفة فقد كان للثورة الاقتصادية التي أحدثها بلكين في ولاياته الجديدة الأثر البالغ في تركية النشاط الفلاحي والحرفي والتجاري، وقد كانت بمثابة أولى الخطوات للمبادرة نحو تعمير للمنطقة خلال القرن الرابع هجري فعاشت استفاقة اقتصادية لم تشهدها قبلا وتقريبا ظلت على ما هي عليه حتى عصر متأخر من حكم بنو حماد القرنين 4-5هـ/10-11م، ولذلك سنحاول التركيز على مختلف أنشطتها في القطاعات الثلاث:

أولا- الزراعة:

من خلال ما تقدمنا به اتضح لنا أن مليانة مدينة فلاحية بامتياز، حيث اجتمعت لها كل المؤهلات لتكون كذلك؛ وبما أنها اشتملت على المطاحن والأرحية⁴⁸ مما يدل على أنها كانت مدينة الزرع والضرع، كثيرة الخيرات وافرة الغلات واشتهرت بالحسن والطيب وكثرة الرطيب⁴⁹، ومن أبرز منتجاتها القمح والشعير والحنطة حيث كان انتشارها واسعا ومعما وذلك نسبة لملائمة المناخ وكمية الأمطار والمياه الوفيرة والتربة الخصبة، فتذكر النصوص الجغرافية أن انتاج القمح بها كان وفيرا، إلى جانب الكتان الذي يحتاج إلى كميات المياه الكثيرة ونهر شلف كان مصدرها.

الأطراف فيها الفساد، فطبيعي أن تتآكل بناها التحتية وتخرّب أراضيها، ضف إلى ذلك الجوائح التي تعرضت لها المنطقة كجائحة الحر الشديد الذي دام فترة من الزمن سنة 725هـ/1356م⁷⁴، وأعقبها طاعون جارف سنة 749هـ/1349م⁷⁵.

خاتمة:

احتضنت مليانة جملة من الأخبار الحضارية خاصة في المجالين السياسي والعلمي في غياب شبه تام للمادة العلمية التي تفيد دراسة المجالين الاجتماعي والاقتصادي، ومن جملة النتائج المتوصل لها بشكل عام بعد دراستنا لموضوع: "التركيبة الاجتماعية المليانية وإسهاماتها في الحياة الاقتصادية خلال العصر الوسيط"؛ أنّ تاريخ تأسيسها يرجع إلى الفترة الرومانية مع تجديد عملية بناءها وترميمها على يد زيري بن مناد، أين نعمت بالكثير من الاستقرار والتقدم في الفترة الإسلامية والذي أدّرّ بالخير على المنطقة.

تندرج مليانة ضمن قائمة المدن الهامة التي يجب أن تعنى بالمزيد من الدراسة لا سيما في ظل التطورات الحاصلة في مجال البحوث الأثرية خاصة في مجال الفن والعمارة والذي لا تزال تحتفظ به المنطقة إلى يوم الناس هذا، وبسبب ما أسهمت به في مجال التقدم الحضاري بالنسبة لمنطقة المغرب الأوسط عبر مختلف العصور.

اشتملت مليانة على عدد من المقومات الطبيعية والبشرية الهامة، ساهمت في تنوع تركيبها الفلاحية والصناعية، وإنّ القراءة في متون مؤهلاتها يدفعنا للقول أنها كانت بمثابة القوة الاقتصادية الضاربة في المنطقة غير أنها عانت الكثير من التهميش في مجموع النصوص الجغرافية والتاريخية.

تربعت مليانة على موقع الاستراتيجي هام جمع بين مختلف المسالك البرية القريبة والبعيدة منها، كما جعلها محطة التقاء القوافل التجارية، علاوة على سوقها التجارية التي استقبلت مختلف البضائع، ولقد ظلت مقصدا للتجار من مختلف الجنسيات خلال العصر الوسيط، وبودنا ترك الباب مفتوحا للبحث والتنقيب حول آثارها العمرانية التي تترجم للفترة الإسلامية وكذا البحث عن أهم تركيبها البشرية لتغطية النقص الحاصل على مستوى الكتابات الجغرافية

أو التبادل، وهو على مقربة من نهر شلف ونظرا لأهميته تم إحاطته بسور لحياته من مختلف الأخطار الخارجية، إلى جانب سوق كران⁶⁶ الذي كان مقصدا للسكان المحليين والمترجلين كل جمعة وفيهم يخص أهم مسالكها البرية ورباطاتها التجارية، فقد كانت مليانة محطة التقاء لمختلف الطرق البرية ولعل أبرزها الطريق الرابط بين مليانة- تنس بينهما مرحلتان⁶⁷ عن طريق بني واريغن ومنها إلى بني واطيل ثم إلى بني جليداسن وصولا إلى تنس⁶⁸، وطريق مليانة- الخضراء بينهما مرحلة واحدة والخضراء هذه مدينة حصينة كريمة المزارع جمة الأسواق⁶⁹، طريق مليانة- كزيانة بينهما مرحلة واحدة، اشتهرت هذه الأخيرة بمزارعها وسوقها الذي قصده التجار من كل الجهات⁷⁰.

هذا؛ وتعددت وتفرقت بها الطرق الرئيسي، فالمرتلح القاصد لقلعة بني حماد ينطلق من مليانة إلى الحصن سير مرحلة واحدة ثم إلى كزيانة ومنها إلى ريغة مرحلة إلى ماروغة ومن هناك إلى أشير مرحلتان ثم نحو تامزكيدة مرحلتان ثم المسيلة وعبرها إلى القلعة 12 عشر ميلا⁷¹، إلى جانب المدينة تاهرت فهي تبعد على المدينة مليانة بثلاثة مراحل⁷²، أما المسير إلى جبال الونشريس فيستلزم المسير ثلاثة أميال⁷³، كما يمكن العبور من القيروان إليها بالدخول إلى القلعة فالمسيلة ليكون نهر شلف محطة الالتقاء ومن هناك نحو تنس دخولا لميانة وقد يواصل التاجر أو الرحال الطريق إلى تهرت ومستغانم من مليانة أيضا.

مما نلاحظه من هذه الخريطة الجغرافية لمسالكها البرية يتضح لنا أنّ مدينة مليانة شكلت حاضرة الطرق التجارية التي تجمع بين مدن البر ناحية الهضاب والصحراء بين خطي سير شمالي شرقي وغربي جنوبي وناحية الجنوب أيضا، ومدن البحر ناحية الشمال فهي قريبة من جزائر بني مزغنة ومن المركز بجاية وتلمسان ووهران، وبالتالي فهي ممر تجاري هام، غير أنّ المصادر الجغرافية لم تله أهمية وفي كل مرة كانت تبخل علينا بالمعلومات برصد قائمة صادراتها ووارداتها، فيما أنها كانت منطقة منتجة ومحطة طرق هامة فلا بد أن تكون منطقة مصدرة ومستوردة في آن واحد.

وإنّ القضية التي يجب الإشارة لها هو تراجع اقتصاد مليانة وزراعتها وتخريب مسالكها لا سيما القرن السادس وما بعده، إذ عاثت الحروب والصراعات التي جمعت مختلف

الهوامش:

- 1- أحمد سليمان: تاريخ المدن الجزائرية، د.ط، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص: 120.
- 2- ابن حوقل النصيبي أبو القاسم: صورة الأرض، د.ط، منشورات دار الحياة، بيروت، 1996، ص: 89.
- 3- شهاب الدين أبي عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج5، د.ط، دار صادر، بيروت، 1977، ص: 196.
- 4- نفسه، ص: 196. الحسن الوزان: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983، ص: 34.
- 5- أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، الجزائر، د.م، 1350، ص: 240-241.
- 6- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 34-35.
- 7- نفسه، ص: 35.
- 8- محمد ابن عبد الله ابن إدريس الإدريسي: المغرب وأرض السودان والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، د.ط، مطبع بريح، ليدن، 1863، ص: 85.
- 9- عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تج: إحسان عباس، ط1، ط2، مطبعة هيدلبرغ، بيروت، 1975، 1984، ص: 547.
- 10- أبي عبد الله محمد العبدري، رحلة العبدري، تج: علي إبراهيم كردي، ط2، 2005، دار سعد الدين، دمشق، ص: 78-79.
- 11- أبو بكر الصابوني: شاعر اشبيلية ويعد خاتمة شعراء العصر العباسي، ذاع صيته أيام المأمون بن عبد المومن صاحب افريقية. أنظر: أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي: رايات المبرزين وغايات المميزين، تج: رضوان محمد الداية، ط1، طلاسدار، دمشق، 1987، ص: 74.
- 12- الحموي، المصدر السابق، ج5، ص: 196.
- 13- سليمان أحمد، المرجع السابق، ص: 120.
- 14- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: كتاب الإمامة والسياسة، ج2، د.ط، مطبعة الفتوح، مصر، د.س، ص: 54.
- 15- الحموي، المصدر السابق، ج5، ص: 196.
- 16- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نش وت: سعد عبد الحميد زغلول، د.ط، دار الشؤون الثقافية العامة، د.ب، د.س، ص: 171.
- 17- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 84.
- 18- محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، د.ط، د.س، دار صادر، بيروت، ص: 273.
- 19- أبو محمد عبد الله التجاني: رحلة التجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، د.ط، تونس ليبيا، الدار العربية للكتاب، 1981، ص: 343. ابن أبي زرع الفاسي علي بن عبد الله: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د. ط، دار المنصور، المغرب، 1972، ص: 191.
- 20- نفسه، ص: 264.
- 21- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تج: كولان وليفي بروفنسال، ج1، د.ط، د.س، دار الثقافة، بيروت، ص: 252، 180 وما بعدها.
- 22- الحميري، المصدر السابق، ص: 547. ابن سعيد المغربي أبي الحسن علي بن موسى: المغرب في حلي المغرب، تج: شوقي ضيف، ج1، ط1، د.س، دار المعارف، مصر، ص: 268.
- 23- نفسه، ص: 386، 410.
- 24- عبد الرحمن بن خلدون: المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مرا: سهيل زكار، ج7، ط1، دار الفكر، بيروت، 2001، ص: 257-258.
- 25- الحميري، المصدر السابق، ص: 547.
- 26- مجهول، المصدر السابق، ص: 171.
- 27- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 85.
- 28- مجهول، المصدر السابق، ص: 171.
- 29- ابن قتيبة، المصدر السابق، ج2، ص: 54.
- 30- ابن حوقل، المصدر السابق، ص: 89. البكري، المصدر السابق، ص: 64.

- 31- ابن ليون، المصدر السابق، ج2، ص:35.
- 32- مرامول كاريخال: إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد زنيير ومحمد الأخضر، ج2، د.ط، دار المعرفة، المغرب، 1988، 1989، ص:360.
- 33- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص:183.
- 34- نفسه، ص:258.
- 35- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص:370.
- 36- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث الجزائر-المدينة-مليانة، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص:293.
- 37- أبو عبيد الله البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، د.ط، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، د.س، ص:61-69.
- 38- الإدريسي، المصدر السابق، ص:115.
- 39- الحميري، المصدر السابق، ص:547.
- 40- أحمد سليمان، المرجع السابق، ص:118.
- 41- أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج6، د.ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1998، ص:133.
- 42- نفسه، ج9، ص:370.
- 43- الإدريسي، المصدر السابق، ص:85.
- 44- الحميري، المصدر السابق، ص:135.
- 45- مجهول، المصدر السابق، ص:171.
- 46- الوزان، المصدر السابق، ج2، ص:35.
- 47- البكري، المصدر السابق، ص:69.
- 48- البكري، المصدر السابق، ج2، ص:241.
- 49- الحموي، المصدر السابق، ج5، ص:196. القزويني، المصدر السابق، ص:273.
- 50- البكري، المصدر السابق، ص:61.
- 51- مجهول، المصدر السابق، ص:171.
- 52- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص:35.
- 53- مرامول كاريخال، المصدر السابق، ج2، ص:360.
- 54- مجهول، المصدر السابق، ص:171.
- 55- ابن حوقل، المصدر السابق، ص:89.
- 56- أحمد سليمان، المصدر السابق، ص:118.
- 57- الإدريسي، المصدر السابق، ص:84، 89.
- 58- مرامول كاريخال، المصدر السابق، ج2، ص:360.
- 59- الحميري، المصدر السابق، ص:547. مجهول، المصدر السابق، ص:171.
- 60- الإدريسي، المصدر السابق، ص:84.
- 61- اليعقوبي، المصدر السابق، ص:149.
- 62- الوزان، المصدر السابق، ج2، ص:35.
- 63- مرامول كاريخال، المصدر السابق، ج2، ص:360.
- 64- الحميري، المصدر السابق، ص:547.
- 65- ابن حوقل، المصدر السابق، ص:89.
- 66- البكري، المصدر السابق، ص:64. ابن حوقل، المصدر السابق، ص:89.
- 67- الحموي، المصدر السابق، ج5، ص:196.
- 68- البكري، المصدر السابق، ص:64-69.

69- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 84.

70- نفسه، ص: 88.

71- الإدريسي، المصدر السابق، ص: 252.

72- نفسه، ص، ص: 85، 88.

73- الحميري، المصدر السابق، ص: 547.

74- محمد بن عبد الله بن بطوطة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: عبد الهادي التازي، ج2، د. ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص: 158.

75- أبي عبد الله محمد بن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، د. ط، مطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص: 126.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر:

1- الإدريسي أبي عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الله ابن إدريس، المغرب وأرض السودان والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، د. ط، مطبع بريج، ليدن، 1863.

2- ابن بطوطة محمد بن عبد الله: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: عبد الهادي التازي، ج2، د. ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.

3- البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، د. ط، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، د. س.

4- التجاني أبو محمد عبد الله: رحلة التجاني، تق: حسن حسني عبد الوهاب، د. ط، الدار العربية للكتاب، تونس ليبيا، 1981.

5- الحموي شهاب الدين أبي عبد الله: معجم البلدان، د. ط، دار صادر، بيروت، 1977.

6- الحميري عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط1، ط2، مطبعة هيدلبرغ، بيروت، 1975، 1984.

7- ابن حوقل النصيبي أبي القاسم: صورة الأرض، د. ط، منشورات دار الحياة، بيروت، 1996.

8- ابن خلدون عبد الرحمن: المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مر: زكار سهيل، ط1، دار الفكر، بيروت، 2001.

9- ابن أبي زرع الفاسي علي بن عبد الله: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د. ط، دار المنصور، المغرب، 1972.

10- العبدري أبي عبد الله محمد: رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، ط2، دار سعد الدين، دمشق، 2005.

11- عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: كولان وليفي بروفنسال، د. ط، دار الثقافة، بيروت، د. س.

12- ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم: كتاب الإمامة والسياسة، د. ط، مطبعة الفتوح، مصر، د. س.

13- القزويني محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، د. ط، د. س، دار صادر، بيروت.

14- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نش وت: سعد عبد الحميد زغلول، د. ط، د. ب، دار الشؤون الثقافية العامة، د. س.

15- ابن مريم التلمساني أبي عبد الله محمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

16- المغربي بن أبي سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين، تح: رضوان محمد الداية، ط1، طلاسدار، دمشق، 1987.

17- المغربي بن أبي سعيد، المغرب في حلي المغرب، تح: شوقي ضيف، ط1، دار المعارف، مصر، د. س.

18- الوزان أبو الحسن: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.

19- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، د. ط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1998.

ثانياً- المراجع العربية والمعرية:

20- سليمان أحمد: تاريخ المدن الجزائرية، د. ط، دار القصبة، الجزائر، 2007.

21- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ المدن الثلاث الجزائر-المدية-مليانة، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2007.

22- المدني أحمد توفيق: كتاب الجزائر، د. ط، د. د، الجزائر، 1350.